أردت أن أكتب فصلا أدرس فيه أدب أندريه جيد بعد أن عرفت أنه ظرف بجائزة نوبل فى شهر نوفمبر الماضى، و لكنى رأيته أكبر و أكثر من أن يحيط بأدبه فصل مهما يكن طويلا. فآثرت أن أثنى عليه بترجمة هذا الكتاب الرائع و أنا أرجو أن يجد الشباب المقفون بين عشبه الخبيث المجنون، كما يقول أندريه جيد، حبا حسنا لا يكاد يستقر فى القلوب و العقول حتى ينبت فيها نباتا حسنا.

[طه حسين]

بروميتيه ذو الغل المهمل

LE PROMÉTHÉE MAL ENCHAÎNÉ

[إلى بول–ألبير لورانس]

إليك أهدى هذا الكتاب أيها الصديق العزيز لأنك تفضلت فأثنيت عليه. لعل قليلا من الذين يشبهونك أن يجدوا فى هذا العشب الخبيث المجنون كما وجدت حبا حسنا.

[اندريه جيد]

فى يوم من أيام شهر مايو ١٨٩X ، فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر رأى الناس هذا المنظر الذى وقع من نفوسهم موقعا غريبا: رأوا فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا، رجلا ضخما نصفا لا يميزه إلا ضخامته النادرة، و قد أقبل عليه رجل نحيف و هو يبتسم غير مضمر فيما نظن شيئا يريب، و رد إليه منديلا كان قد سقط منه. فيشكر الرجل الضخم فى إيجاز و يهم أن يمضى. ثم يبدو له فيميل إلى الرجل النحيف كأنما يطلب إليه شيئا، و كأن الرجل النحيف قد أنبأه بما أراد، فقد أخرج من جيبه دواة و قلما و دفعهما فى سذاجة الى الرجل النحيف، و معهما غلاف كان فى يده. و رأى المارة الرجل النحيف يكتب عنوانا على الغلاف. و هنا يبدأ ما فى القصة من غرابة لم تشر إليها صحيفة ما ، فقد رد النحيف الى البدين دواته و قلمه و غلافه. و لم يكد يبتسم بعد ذلك مودعا حتى أهدى البدين إليه شكره لطمة مفاجئة عنيفة، ثم وثب إلى عربة و استخفى قبل أن يستفيق النظارة (و كنت بينهم) من الدهش و يفكر أحدهم فى التعلق به.

و قد علمت بعد ذلك ان هذا الرجل كان زوس، غنى من رجال الأعمال.

و ضاق الرجل النحيف بالتفاف الناس حوله و عنايتهم به، فجعل يؤكد أنه لم يكد يشعر باللطمة على حين كان أنفه يرعف و كانت شفته تقطر دما، و كان يلح فى أن يخلى بينه و بين نفسه. فلما رأى الناس منه ذلك تفرقوا عنه قليلا قليلا. و القارىء لنا فى ألا نعنى منذ الآن برجل سيراه كثيرا فيما يستقبل من الحديث.

تاريخ الحياة الخلقية الخاصة المستقيمة

١

لن أتحدث عن الحياة الخلقية العامة فليس لها وجود، و لكنى أروى بمنا سبتها قصة: أحس بروميتيه فى أعلى جبل القوقاز أن الاغلال و القيود و الوسوق و الحواجز و الموانع الأخرى قد أثقلته و مسه منهاالضر، فأراد أن يغير موضعه، فارتفع بجنبه الأيسر و مد ذراعه اليمنى، و رآه الناس ينحدر فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا بين الساعة الرابعة و الخامسة فى يوم من أيام الخريف.

و جعلت جماعات من الشخصيات الباريسية المعروفة تمر أمام عينيه، و جعل هو يسأل نفسه إلى أين تذهب هذه الجماعات؟ ثم جلس فى إحدى القهوات إلى قدح من الجعة و سأل الخادم: "إلى أين تمضى هذه الجماعات؟"

تاريخ الخادم و صاحب الملايين

قال الخادم: لو رآهم سيدى كما أراهم يمرون فى كل يوم لجاز أن يسأل نفسه من اين أقبلوا. فهو سؤال واحد لأنهم يمرون كل يوم. و أنا أقول لنفسى: ما داموا يمرون فى كل يوم فهم لم يجدوا ما يبتغون. و انا أنتظر الآن أن يسألنى سيدى: ما ذا يبتغون؟ و سيرى سيدى بما ذا أجيبه.

هنالك سأل بروميتيه: - ما ذا يبتغون؟

قال الخادم: - ما داموا لا يستقرون فهم لا يلتمسون السعادة. و يستطيع سيدى أن يصدقنى.

ثم دنا منه و قال هامسا: - انما يلتمسون شخصياتهم. أليس سيدى من اهل باريس؟

قال بروميتيه: - لا!

قال الخادم: إن هذا لبين. نعم! شخصياتهم: ما نسميه هنا بالمزاج. فأنا مثلا، كما تراني الآن، لا تشك فى انى خادم قهوة، كلا يا سيدى! لست بطبعى خادم قهوة، و إنما اتكلف هذه المهنة عن حب لها، صدقنى، إن شئت، أن لى حياة مضمرة، إنى ألاحظ الشخصيات، إنها وحدها تثير حب الاستطلاع، ثم الصلات بين الشخصيات. لقد رتب كل شىء هنا على احسن وجه، فى هذا المطعم مائدة لكل ثلاثة من الناس، و سأبين لك بعد حين تدبير ذلك، ستتناول العشاء بعد قليل، أليس كذلك؟ ستقدم ...

و كان بروميتيه متعبا بعض الشىء. قال الخادم:

- مائدة لكل ثلاثة من الناس. نعم هذا اوفق ما و صلت اليه، يقبل ثلاثة من الناس فيعرف بعضهم الى بعض (إذا أرادوا بالطبع). ففى مطعمى يجب ان يذكر الطارئون أسمائهم قبل الجلوس إلى المائدة، و أن يذكروا صناعتهم. و ليس عليهم بأس إن أخطأوا. ثم يجلسون (و لا أجلس أنا) ، ثم يتحدثون (و لا اتحدث أنا) ، و انما أصل بين الناس و أسمع لهم و انظر اليهم و ادير بينهم الحديث. فاذا انتهى الطعام فقد عرفت دخيلة ثلاثة من الناس، ثلاثة من الشخصيات. أما هم فلم يعرفوا شيئا. أما أنا فافهم عنى: إنى أسمع، إنى أنشىء الصلات، على حين يخضعون هم لهذه الصلات التى أنظمها. و قد تسألنى ما ذا يجدى على هذا كله؟ لا يجدى على شيئا، و إنما أنا موكل بانشاء الصلات ... لا بالقياس الى نفسى ... إنما هو عمل يشبه أن يكون شيئا من العبث المطلق.

و كان شىء من التعب يظهر على بروميتيه.

قال الخادم:

- عمل عابث! هذا لفظ لا يدلك أنت على شىء، أما أنا فانه يدلنى على شىء خطير عظيم الخطر. لقد فكرت وقتا طويلا فى ان العمل العابث هو الذى يميز الانسان من الحيوان. و كنت اعرف الانسان بأنه الحيوان القادر على العمل العابث. ثم بدا لى فرأيت عكس هذا الرأى، و هو أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى لا يستطيع أن يعبث. أن يعبث؟ فكر إذن: أن يتصرف لغير علة. - نعم ! قد فهمت. — لنقل لغير دافع إلى العمل. ز منذ ذلك الوقت جعلت هذه القضية تغيظنى، و جعلت أسأل نفسى: لم يفعل الانسان هذا؟ و لم يفعل الانسان ذاك؟ ... و ليس مصدر ذلك مع هذا أنى جبرى ... و لكن لهذه المناسبة اسمع هذه القصة:

لى صديق يا سيدى من أصحاب الملايين قد لا تصدق ذلك. و هو إلى ثرائه ذكى، أثار فى نفسى فكرة العمل العابث، و سأل نفسه كيف السبيل اليها؟ و يجب أن تقدر أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا عمل لا ينتج شيئا، فهذا شىء ... إنما يريد عملا عابثا لا دافع اليه. أتفهم عملا لا تدفع إليه منفعة و لا شهوة و لا سبب ما، عملا غير نافع، عملا ينشىء نفسه، عملا لا غاية له و لا مسيطر عليه، عملا حرا، عملا أصيلا؟

قال بروميتيه: - ما ذا؟

قال الخادم:

- ألق بالك، إن صاحبى يهبط فى كل صباح و فى جيبه ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك قد طوى عليها غلافا و فى يده لطمة مهيأة. و همه أن يلقى رجلا لا يختاره، فيلقى فى الشارع منديله ثم يقول لمن يلتقط المنديل متلطفا:
- عفوا سيدى! ألا تعرف أحدا؟

يجيبه الآخر: بل أعرف غير واحد.

فيقول صاحب الملايين: فستتطلف إذن يا سيدى و تكتب ا سمه على هذا الغلاف، و إليك القلم و الدواة ...

- و الآن يا سيدى أتفسر لى ... ؟

فيجيب صاحب الملايين:

- هذا مبدأ ثم (و قد أنسيت أن أقول إنه قوى) يضع على خده اللطمة التى أعدها فى يده، و يدعو عربة و يستقلها و يستخفى.

أفهمت الآن؟

عملان عابثان فى لحظة واحدة: هذه الورقة المالية ترسل إلى عنوان لم يختره هو، و لطمة تهدى إلى رجل قد اختار نفسه ليتلقاها حين التقط المنديل. — ألا ترى أن هذا هو العبث؟ إنه عمل قابل للعكس، أحد الرجلين تلقى خمسمائة فرانك لأجل لطمة، و الآخر تلقى لطمة من أجل خمسمائة فرانك ... ثم لا سبيل إلى الفهم ... فقد نضل الطريق. — فكر! عمل عابث ليس أشد من ذلك بلبلة للنفوس. — و لكن سيدى قد أخذ يجد الجوع. إنى معتذر إلى سيدى. ما أيسر ما يندفع الناس فى الحديث ...

أيريد سيدى أن يلقى إلى ا سمه لأقدمه؟

قال بروميتيه فى يسر: - ا سمى بروميتيه.

قال الخادم: - بروميتيه! لقد قدرت أن سيدى ليس من هذه المدينة ... و مهنة سيدى؟

قال بروميتيه: - لا شىء.

قال الخادم فى ابتسامة حلوة: - كلا! يكفى أن يرى الانسان سيدى ليعلم أنه فعل شيئا.

قال بروميتيه هامسا: - مضى على ذلك زمن طويل.

قال الخادم: - لا بأس لا بأس! فأنا حين أقدم الناس أذكر أسماءهم، فأما صناعتهم فلا أذكرها بحال.

- لننظر لننظر، ما ذا يصنع سيدى ...

قال بروميتيه مغمغما خجلا: - كنت أصنع الثقاب.

هنالك ساد صمت ثقيل بعض الشىء. و لقد فهم الخادم انه أخطأ حين ألح فى السؤال و فهم بروميتيه أنه أخطأ حين أقدم على الجواب.

ثم قال الخادم فى لهجة رقيقة:

- و الآن قد ترك سيدى صناعة الثقاب. و مع ذلك فينبغى أن أكتب شيئا، فلست أستطيع أن أكتب هكذا: بروميتيه، ثم لا أزيد. فلسيدى من غير شك صناعة متواضعة ما أو تخصص فى شىء من الأشياء ... و أخيرا ما ذا يحسن سيدى أن يعمل؟

فأعاد بروميتيه قوله: - لا شىء.

قال الخادم:

- إذن فلنقل أنك أديب. و الآن إذا تفضل سيدى بالدخول إلى قاعة الطعام. فلست أستطيع أن أخدمه خارج القاعة. ثم صاح: - مائدة لثلاثة! مائدة! ... و هنا دخل رجلان من بابين مختلفين. و قد رئيا يمليان اسميهما على الخادم، و إذا لم يطلب أحد تعارفاَ فقد جلس الرجلان إلى المائدة.

فلما استقر المجلس:

٢

قال أحدهم:

- يا سيدى! إنما أقبلت على هذا المطعم مع ان الأكل فيه ردىء لشىء واحد هو الحديث. فأنا أبغض الخلوة إلى الطعام، و أحب المائدة التى يجلس عليها ثلاثة، لأن الاثنين إذا خلا إلى الآخر جاز ان يختصما ... و لكنكما صموتان فيما يظهر!

قال بروميتيه: - على رغمى آثرت الصمت.

قال المتكلم: - سأمضى إذا فى الحديث.

قال الثالث: - تفضل.

قال المتكلم:

- أنا أرى أن ساعة يجلس فيها ثلاثة رجال إلى المائدة تكفيهم ليتعارفوا إذا لم يسرفوا فى الأكل، و هذا يسير هنا إذا أقللنا الكلام و اجتنبنا الموضوعات الشائعة، أريد ألا نذكر إلا ما يمس الحياة الفردية الخاصة. و لست أزعم أن هذا الحديث ضربة لازم. و لكن إذا لم يعجبنا الحديث فما قدومنا إلى هذا المطعم؟

و كان بروميتيه متعبا جدا و قد مال الخادم إليه و همس قائلا:

- هذا الذى تكلم هوكوكليس، و هذا الذى سيتكلم هو داموكليس.

قال داموكليس:

قصة داموكليس

سيدى لو قلت لى ذلك منذ شهر لما استطعت أن أجيب. أما بعد الذى حدث لى فى الشهر الماضى، فلم يبق شىء مما كنت أعتقده من قبل. و ما كنت لأحدثكم بشىء مما كنت أفكر فيه قديما لولا أن العلم به يعينكما على أن تفهما الفرق بينه و بين ما افكر فيه الآن. و إذن يا سيدى فأنا أشعر منذ ثلاثين يوما بأنى كائن ممتاز فريد ميسر لمصير غريب. فاستنبطا من أنى كنت أشعر قبل ذلك شعورا يناقض هذا الشعور مناقضة تامة. فقد كنت احيا حياة عادية خالصة، و أفرض على نفسى الاذعان لهذه القاعدة و هى ان أسير سيرة أشد الناس محافظة على المألوف. أما الآن فأنا واثق بان الرجل العادى لا وجود له، و بأن من الجهد الضائع أن يحاول أحد أن يشبه كافة الناس، لأن كافة الناس تأتلف مع الأفراد جميعا، و ليس فى وسع الفرد الواحد أن يشبه جميع الأفراد. و مع ذلك فقد كنت أفتن و أتكلف الاحصاء و أتلمس أوساط الأمور دون ان أفهم أن الأطراف تتقارب، و أن من نام متأخرا لقى من استيقظ مبكرا: و أن من تحرى أن يجلس فى المكان الأوسط كان خليقا أن يجلس بين كرسيين.

فكنت آوى إلى سريرى كل يوم فى الساعة العاشرة، و أنام ثمانى ساعات و نصف ساعة، و أحرص فى كل عمل من أعمالى على أن أقلد أكبر عدد من الناس،و لن أطيل فى ذلك.

و لكن عرضت لى ذات يوم مغامرة خاصة. و خطر ذلك فى حياة رجل متزن لا يفهم إلا بعد حين.

٣

إذن فلتعلما أني تلقيت كتابا ذات صباح.

- و أنا أرى يا سيدى أنى أقص عليكما قصتى فى غير مهارة، لأنى لا أدرى الدهش فى وجهيكما. فقد كان يجب أن أنبئكما بأنى لم أكن أنتظر كتبا. فأنا أتلقى ثلاث رسائل فى كل عام: إحداهما من صاحب البيت يطالبنى بالأجر، و الثانية من المصرف ينبئنى بأنى قادر على آدائه، و الثالثة فى أول يناير ... و أوثر ألا أنبئكما بمصدرها. و كان عنوان الرسالة التى تلقيتها قد كتب بخط لا أعرفه. و خلو هذا الخط من الخصائص كلها، كما عرفت فيما بعد حين لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط، لم ينبئنى عن صاحب الرسالة بشيء. فلم يجد المختصون فى هذا الخط آية إلا على كرم النفس و شيء من الضعف، و لم يستطيعوا أن يحددوا شيئا. الخط ... لست أتحدث إلا عما كان على الغلاف، فلم يكن داخل الغلاف شيء، لم يكن داخله سطر و لا نقطة. لم يكن فى الغلاف إلا ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك.

و كنت أهم أن أتناول قدح من "الشيكولاتة" الذى تعودت أن أتناوله كل صباح، و لكنى كنت عظيم الدهش حتى صرفنى ذلك عنه فأدركته و قد برد ما فيه، جعلت ابحث ... و لم يكن أحد مدينا لى بشيء. و لى دخل محدود يا سيدى، و أنا أستعين بالاقتصاد على الموازنة بينه و بين النفقات برغم ما يصيب الاسهم من نقص فى كل عام. قلت إنى لم أكن أنتظر شيئا و لم أطلب إلى أحد شيئا. و قد تعودت الحياة المنظمة حتى منعنى ذلك من أن أؤمل شيئا، و قد فكرت كثيرا متوخيا فى التفكير أقوم مناهجه: من أين؟ إلى أين؟ من أى طريق و لماذا؟ و كانت الورقة لا تجيب على سؤال من هذه الأسئلة، فقد كنت ألقى هذه الأسئلة للمرة الأولى.

و قد فكرت فى أن هذا خطأ، و فى أنى سأحاول إصلاحه. فقد قدرت أن هذه الورقة قد كانت مخصصة لرجل غيرى يشاركنى الاسم. و قد بحثت فى الدليل عن شريك لى فى اسمى لعله كان ينتظر هذه الورقة. و لكن اسمى ليس شائعا، فرأيت أنى الوحيد الذى يحمله. و قد قدرت أنى سأجد على الغلاف اسم من ارسله بعد أن لم أجد اسم من أرسل إليه. و هنالك لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط. و لكن لا شيء — لم يستطيعوا أن ينبئونى بشيء، و لم أصل إلا إلى زيادة ما أنا فيه من الضيق. فهذا المبلغ من المال يزداد ثقله على من يوم إلى يوم، و أنا أحاول أن أتخفف منه فلا أجد إلى ذلك سبيلا، فقد يجب — لو أن أحدا من الناس قد أهدى إلى هذا المبلغ غير مخطيء — أن أشكر له هديته. إنى لحريص على ان اكون معترفا بالجميل — و لكنى لا أدرى لمن اعترف بالجميل.

و أنا احمل هذه الورقة دائما مؤملا أن تعرض لى المصادفة التى تخرجنى من هذا العناء. أحملها لا افارقها فى النهار و لا فى الليل لقد أصبحت مملوكا لها. — لقد كنت فيما مضى رجلا عاديا و لكنى كنت رجلا حرا. أما الآن فانى رق لهذه الورقة! لقد حددت هذه المغامرة شخصيتى. كنت انسانا ما، فأصبحت انسانا بعينه.

و أنا منذ هذه المغامرة أزعج نفسى أبحث عمن أستطيع أن اتحدث إليه، و إذا آثرت الاختلاف إلى هذا المطعم فى أكثر الاحيان. فمصدر ذلك أنى أرجو أن أجد على مائدة من هذه الموائد المخصصة لثلاثة أشخاص واحدا من جليسى يعرف صاحب هذا الخط على هذا الغلاف الذى أعرضه عليكما ...

ثم أخرج من صدره زفرة و من سترته غلافا أصفر قذرا قد كتب اسمه عليه كتابة واضحة. هنالك وقع الحادث الغريب: فقد كان كوكليس ملتزما للصمت، و ظل ملتزما للصمت — لكنه فجأة رفع يده على داموكليس، لم يكد الخادم يردها إلا فى جهد. فاضطر كوكليس إلى أن يضبط نفسه و قال فى حزن هذه الكلمات التى لم تفهم إلا فيما بعد:

- على ان الخير فى هذا. فلو قد رددت إليك اللطمة لخيل إليك أن من الحق أن ترد إلى الورقة مع انها ليست لى. — و اذ ظهر على داموكليس أنه ينتظر تفسيرا لهذه الحركة قال كوكليس:

أنا الذى كتب عنوانك على هذا الغلاف.

قال داموكليس فى شىء من الغضب: و لكن كيف عرفت ا سمى؟

قال كوكليس: عرفته مصا دفة. على أن هذا لا خطر له بالقصة، فقصتى أغرب من قصتك فا ذن لى أن أقصها فى ايجاز:

قصة كوكليس

ليس بينى و بين الناس صلات ذات شان،بل لم أكن اعلم، أن لى بالناس صلة قبل أن يقع ما سأنبئكم به الآن. لست أعرف من اخرجنى إلى هذا العالم و قد تلمست وقتا طويلامصيرى مرتبط بأول ما يكون بينى و بين الناس من صلة. فلم أنشىء نفسى فأنا أدنى إلى الخير من ذلك. و كنت أعلم أن أول عمل أعمله سيعلل وجودى. و إذ كنت خيرا بالفطرة فقد كان اول عمل أتيته أنى التقطت منديلا. و لم يكن صاحبه قد بعد عن مكانه إلا خطوات ثلاثا، فأسرعت نحوه و رددته إليه. و اخذه فى غير دهش ظاهر، و إنما الدهش أصابنى أنا حين رأيته يقدم لى غلافا هو هذا و يقول لى باسما: تفضل بكتابة عنوان على هذا الغلاف. قلت اى عنوان؟ - قال: عنوان أحد ما. — و قدم فى أثناء ذلك أدوات الكتابة. و لم أكن أرغب فى التخلص من علة ظاهرة، فأجبته إلى ما أراد. و قد قلت لكما أن ليس بينى و بين الناس صلة ذات شأن. و كان الاسم الذى كتبته، و لست ادرى كيف خطر لى اسم رجل لا اعرفه. ثم دفعت إليه غلافه و حييته معتقدا أنى اديت ما على، و هممت أن أنصرف و لكنى تلقيت على خدى لطمة مروعة.

و قد دهشت لذلك فلم اعرف ما صار إليه لاطمى. فلما ثبت إلى نفسى رأيت جماعة ضخمة تحيط بى. و كانت الجماعة كلها تتكلم. و قد تعلق بعضهم يريد ان يصحبنى إلى صيدلية مجاورة. و لم أخلص من عنايتهم إلا حين اكدت لهم أن ليس بى بأس، على حين كان انفى يرعف و كنت اجد ألما شديدا فى الفك.

و قد اضطرنى ما اصاب خدى من التورمإلى ان ألزم غرفتى ثمانية أيام.

و قد انفقت هذه الأيام مفكرا:

لم اهدى الرجل إلى هذه اللطمة؟

لا شك فى أنه أخطأ فلم أقدم إليه ما يسوءه!

لم اقدم شر إلى احد، و ليس على أحد من الناس يمكن أن يتمنى لى الشر، فالشر شىء يرد على من قدمه.

و قد فكرت لأول مرة أن هذه اللطمة إن لم تكن قد أهديت إلى عن خطأ — فهى شىء قد كتبه على القضاء، على انى أضفت إلى ذلك أن المهم هو انى قد تلقيت اللطمة سواء أكان ذلك عن خطأ أم عن عمد. و هل اردها — و قد أنبأتكما بانى خير بالطبع، و أضيف إلى ذلك أن من لطمنى كان أقوى منى؟

فلما برىء خدى و استطعت الخروج جعلت ابحث عن لاطمى. نعم! و لكن لأتجنبه على انى لم القه. و إذا كنت قد تجنبته فقد كان ذلك على غير علم منى.

ثم انحنى نحو بروميتيه قائلا:

- أنظر كيف يتعقد اليوم كل شىء و كيف تختلط الأمور بدل أن تتضح: - فقد علمت أن لطمتى قد ادت إلى هذا السيد خمسمائة فرنك ...

قال داموكليس: - و لكن عفوا .

قال كوكليس محييا: - اسمى كوكليس يا سيدى.

قال داموكليس: - سأذكر لك اسمى يا كوكليس، فأنا داموكليس، و انا واثق بأنه سيسرك أن تعرف من ساق إليك حظك ..

قال كوكليس: نعم! ، و ستعلم ألم من ساق إليك حظك، فما ينبغى أن تجهل أن ربحك مستمد من بؤسى.

قال داموكليس: - و لكن ...

قال كوكليس: - أرجو الا تكثر، فان بين ربحك و ألمى صلة لا أدرى ما هى، و لكن هناك صلة.

قال داموكليس: - و لكن يا سيدى.

قال كوكليس: - لا تدعنى سيدك، بل ادعنى كوكل – فى غير تكلف.

قال داموكليس: - و لكن مرة أخرى أيها الرجل الطيب كوكل ...

قال كوكليس: - كلا يا سيدى

- كلا يا داموكل ، فقد تستطيع أن تقول كل شىء، فأثر اللطمة قائم على خدى ... أستطيع أن أظهرك عليه.

و جعل الحديث يتصل بالاشخاص و يمعن فى السوء. و هنا استبانت لباقة الخادم.

٤

فقد صب فى حركة رشيقة – طبقا من أطباق الطعام على بروميتيه، فحول إليه فجأة عناية صاحبيه. لم يستطع بروميتيه أن يحبس صيحة، و قد ظهر صوته بالقياس إلى صوت الآخرين عميقا أجش، حتى لاحظت الجماعة أنه آثر الصمت إلى الآن.

فقال داموكليس و كوكليس فى غيظ مؤتلف: - إنك لا تقول شيئا!

بروميتيه يتكلم

قال بروميتيه:

- يا سيدى لا صلة بين ما يمكن أن أقوله و بين ما نحن فيه ... حتى أنى لا ادرى كيف ... بل كلما فكرت ... كلا! فى الحق أنى لا أدرى كيف أقول. لكل منكما قصته، أما أنا فلا قصة لى. فاعذرانى ثقا بأنى اسمع فى متعة خالصة لكل منكما و هو يقص قصته التى اود لو ... أن لى ... و لكنى لا أستطيع حتى ان اعبر عن ذات نفسى فى يسر. كلا! فى الحق أنه يحسن ان تعذرانى يا سيدى العزيزين، فلم اصل إلى باريس إلا منذ قريب من ساعتين. و لم يعرض لى فيها شىء – إلا لقاؤكما الذى لا يقدر و الذى يشعرنى بما يمكن أن يصير إليه حديث باريسى حين يقبل عليه أصحاب الذكاء و ...

قال كوكليس: - و لكن قبل ان تاتى الى باريس.

أضاف داموكليس: - قد كنت فى مكان ما.

قال بروميتيه: هذا حق اعترف به ... و لكنى أعيد أن ليس بين ذلك و بين ما نحن فيه صلة ما ...

قال كوكليس: - و لو! لقد جئنا إلى هذا المطعم لنتحدث. و قد أخرجنا داموكل و انا قصتنا و انت وحدك لم تات بشىء. إنما تسمع و ليس هذا عدلا. قد آن لك أن تقول يا سيدى ...

و أحس الخادم فى لباقته كلها أن قد آن الوقت لتعريفه، فأزلق الاسم كأنما يتم الجملة قائلا فى يسر: - بروميتيه.

قال داموكليس: - بروميتيه! معذرة يا سيدى. يخيل إلى أن هذا الاسم قد ...

قال بروميتيه مقاطعا: - أوه! ليس لهذا خطر ما.

قال الآخران فى حنق: - و لكن اذا لم يكن لشىء خطر فلم جئت إلى هذا المطعم أيها السيد العزيز ... سيدى ......؟

قال بروميتيه فى رفق: - بروميتيه.

قال كوكليس:

- أيها السيد العزيز بروميتيه، ألم ألفتكما آنفا إلى أن هذا المطعم يدعو إلى القول؟ على أنك لن تقنعنى بأن اسمك هذا الغريب هو وحده الذى يميزك. اذا لم تكن قد عملت شيئا فستعمل شيئا، فماذا يسعك ان تعمل. بين لنا الخصلة التى تميزك، بأى شىء تمتاز من سائر الناس؟ لماذا سميت بروميتيه؟

و فى هذا الموج من الاسئلة أغرق بروميتيه فنكس رأسه، و اضطر إلى ان يجيب فى صوت أشد عمقا، و فى شىء من الاختلاط:

- ما يميزني يا سادتى؟ - ما يميزنى انا — إنه نسر.

- إنه ما ذا؟

- نسر — أو لعله صقر ... هذا موضوع تردد.

- نسر! هذا غريب! — نسر ... أين هو؟

قال بروميتيه: - أتحر صان على ان ترياه؟

قالا: - نعم! إن لم يكن فى ذلك تطفل.

هنالك نسى بروميتيه مكانه، كل نسيان، و نهض فجاءة و دفع صيحة عظيمة، صيحة دعاء لنسره العظيم، فوقع هذا الحادث المذهل.

قصة النسر

طائر يظهر ضخما من بعيد، و لكنه من قريب ليس شديد الضخامة، يغمر بالظلام سماء الشارع لحظة — ثم يهوى كالعا صفة على القهوة، فيحطم الواجهة، و يقع و قد فقأ عين كوكليس بخفة من جناحه، و فى زقزقة متصلة فيها حنان و لكن فيها قوة، يسقط على الاجنب الأيمن لبروميتيه، الذى يسرع إلى صدارته فيفرجها إلى النسر و يقدم إلى النسر قطعة من كبده.

٥

ا شتدت الضوضاء فى القهوة.

و اختلطت الأ صوات فى غير ائتلاف، ثم تفرقت حين انضمت إليها أ صوات أخرى.

و كان كوكليس يقول: - خذ حذرك!

و لكن إنكاره ضاع فى وسط الضوضاء الضخمة التى كانت تقول:

- هذا نسر؟ هيهات!! انظروا إليه، هذا الطائر الناحل! هذا ... نسر! هيهات! إنه لا يزيد على ان يكون ضميرا.

و الواقع ان النسر العظيم كان يائسا، نحيفا خفاق الجناحين رثا. و كان إقباله فى شره على قوته القاسى يدل على أن المسكين لم يطعم شيئا منذ ثلاثة أيام.

و أسرع أخرون مع ذلك، فجعلوا يعرضون فى همس لبروميتيه قائلين: و لكن أيها السيد لا تظن أن هذا النسر يميزك بشىء. نسر، أقول لك الحق نسر، كل منا له نسره.

و كان أحدهم يقول: - و لكن ...

فيضيف الاخر:

- و لكننا لا نحمل نسرنا فى باريس. فهو لا يروق فى باريس. إن النسر يضايق. أنظر إلى ما فعل! إن سرك أن تطعمه من كبدك فذلك إليك. و لكنى أؤكد لك أن هذا منظر مؤلم لمن يراه. فاذا عمدت إلى هذا الأمر فاستخف به.

و كان بروميتيه يغمغم فى اختلاط:

- معذرة يا سادتى — إن أسفى لعظيم. ماذا أصنع!

- عليك أن تخلص منه قبل أن تدخل يا سيدى.

و كان بعضهم يقول: - يجب خنقه.

و بعضهم الآخر يقول: - يجب بيعه، فلم توجد مكاتب الصحف إلا لهذا يا سيدى.

و فى هذا الضجيج المختلط المتزايد لم يلاحظ أحد أن داموكليس يطلب الحساب إلى الخادم فجاءة. فقدم إليه الخادم حسابه على هذا النحو:

غذاء كامل لثلاثة أشخاص (مع الحديث) .... ٣٠ فرانكا

زجاج الواجهة .... ٤٥٠ فرانكا

عين من الزجاج لكوكليس .... ٣,٥ فرانكا

... ثم قال داموكليس للخادم و هو يزلق ورقته إليه ...: و احتفظ بالباقى. ثم انصرف سعيدا.

و آخر هذا الفصل قليل الغناء. فقد أخذ المطعم يخلو قليلا قليلا. و عبثا حاول بروميتيه و كوكليس أن يؤديا نصيبهما من الحساب، فقد أدى داموكليس كل شىء. و ودع بروميتيه الخادم و كوكليس، و مضى مستأنيا إلى القوقاز و هو يفكر: أيبيع النسر؟ - أيخنقه؟ ... و ما يمنع من استئناسه؟ ...

سجـــن بروميتيـــــه

١

و ما هى إلا أيام حتى يرى بوميتيه نفسه سجينا بفل تلطف الخادم الذى و شى به إلى السلطان و زعم انه يصنع الثقاب بغير ترخيص. و كان السجن معتزلا عن العالم لا ينظر منه إلا إلى السماء. و كان خارجه يشبه البرج. و كان من داخله يسلط السأم على بروميتيه. و اقبل الخادم ذات يوم يزوره.

فقال له بروميتيه باسما:

- ما أسعدنى بلقائك! لقد كان الملل يضنينى. تحدث أنت الذى يقدم من خارج. إن جدران هذا السجن تعزلنى عن العالم، و لست أعرف من امر الناس شيئا. ماذا يصنعون؟ - و أنت أولا ماذا تصنع؟

قال الخادم: - لا اكاد أصنع شيئا منذ كانت قصتك المثيرة. لم يكن أحد يلم بنا، و قد أنفقنا وقتا طويلا فى إصلاح الواجهة.

قال بروميتيه:

- إنى آسف لذلك. و لكن داموكليس ما خطبه؟ أرأيت داموكليس؟ لقد انصرف مسرعا من المطعم ذلك اليوم فلم أودعه. و أنا لذلك محزون. فقد كان يظهر رجلا عذبا شديد الحياء قوى الضمير. كان يعرض ألمه فى غير تكلف، و كان يؤثر فى نفسى. أكان على أقل تقدير سعيدا حين ترك المائدة؟

قال الخادم: - لم تطل سعادته. فقد رأيته من غد و قد ازداد قلقه جدا حتى بكى و هو يحدثنى. و اخص ما يقلقه صحة كوكليس.

سأل بروميتيه: - أهو إذن مريض؟

قال الخادم:

- كوكليس؟ - كلا! بل أستطيع أن أقول إنه يرى الآن بعين واحدة خيرا مما كان يرى بعينين. و هو يظهر للناس جميعا عينه الزجاجية و يسعده أن يرثى له. فاذا لقيته فقل له إن عينه الجديدة تزينه، و أنه يحملها فى رشاقة و ظرف، و لكن أضف أنه قد تألم من غير شك ...
- أيألم إذن؟
- لقد يألم حين لا يقال له إنه يألم.
- و لكن إذا استقامت حال كوكليس، بل إذا لم ينله ألم فما قلق داموكليس؟
- يقلق مما يجب أن يؤلم كوكليس.
- أتشير على حقا بأن أقول لكوكليس إنه ألم ...

- نعم! قل له ذلك، و لكن داموكليس يعتقده، و هذا يغنيه.
- و ما ذا يصنع غير ذلك؟
- لا شيء. قد ا ستأثر به هذا الخاطر الوحيد. و هو فيما بينى و بينك رجل مشغول البال — فهو يقول لولا هذه الفرنكات الخمسمائة لما صار كوكليس إلى هذا البؤس.
- و كوكليس؟
- يقول هذا أيضا ... و لكنه ا صبح غنيا جدا.
- و كيف كان ذلك؟
- لست ا درى بالضبط، - و لكن الناس رثوا له كثيرا فى الصحف، و جمعت له معونة صالحة.
- و ما ذا يصنع بها؟
- إنه ماكر. يفكر فى ان ينشىء ملجا بالمال الذى يجمع له.
- ملجأ!
- ملجأ صغيرا، نعم ! لا يؤوى إلا العور. و قد عين نفسه مديرا.

صاح بروميتيه: - هيه! إن حديثك ليمتعنى.

قال الخا دم:

- لقد كنت فى ذلك راغبا ...
- و أنبئنى أيضا ... ما خطب صاحب الملايين؟
- أما هو فثعلب! — أتظن أن شيئا من ذلك يسؤه!! إنه مثلى: يلاحظ الناس ... إن سرك ذلك قدمتك إليه — حين تخرج من هذا السجن

و أخيرا قال بروميتيه: - و على ذكر السجن لما ذا انا هنا؟ و بم أتهم؟ أتعرف هذا أيها الخا دم الذى يعرف الكثير من الأ شيا ء؟

قال الخا دم متكلفا: - لا و الله! كل ما اعلمه أنك فى سجن احتياطى. و ستعرف ذنبك بعد ان يحكم عليك.

قال بروميتيه: - هذا خير. إنى أوثر على كل حال ان اعلم.

قال الخا دم: - و داعا! لقد تأخرت. و من عجب أن الوقت يمضى مسرعا فى صحبتك ... و لكن أنبئنى عن نسرك ما خطبه؟

قال بروميتيه: - عجبا! لقد أنسيته.

و لم يكد الخا دم ينصرف حتى أخذ بروميتيه يفكر فى نسره.

" يجب ان ينمو و أن أخف"

و إذا كان بروميتيه شديد السأم فقد دعا نسره حين اقبل المسا ء — و جا ء النسر. قال بروميتيه:

- لقد طال انتظارى لك.

أجاب النسر: - فهلا عجلت ذعائى!

و نظر بروميتيه لأول مرة إلى نسره، و قد قام فى غير عناية على حديد السجن الملتوى، و كان ذهب الأ صيل يبين عن شحوبه الشديد. كان داكنا دميما متداخلا كئيبا مستسلما بائسا. و كان يظهر أضعف من ان يطيق الطيران. فلما رأى ذلك بروميتيه بكى إ شفاقا على نسره قائلا له:

- ايها الطائر الوفى كانك تألم. أنبئنى ما خطبك؟

قال النسر: - إنى جائع.

قال بروميتيه و قد كشف عن كبده: - كل.

فأكل الطائر. قال بروميتيه: - إنك تؤذينى.

و لكن النسر لم يقل شيئا آخر ذلك اليوم.

٢

فلما كان الغد حن بروميتيه غلى نسره منذ الفجر. فدعاه من اعماق حمرة الصبح المشرق، و أقبل النسر مع الشمس، و نبت له ثلاث ريشات. فانتحب بروميتيه حنانا، و قال و هو يمسح على الريشات النابتة: - شد ما تأخرت!

قال الطائر:

- ذلك أنى لا اقدر على الطيران السريع، و لا أرتفع إلا فوق الأرض ...
- لما ذا؟
- لأننى شديد الضعف.
- إلام تحتاج لتسير مسرعا؟
- إلى كبدك.
- إليك فكل.

فلما كان الغد زاد ريش الطائر ثمانى رئشات. و ما هى إلا أيام حتى جعل يسبق مطلع الصبح. أما بروميتيه فجعل ينحف. و كان بروميتيه يقول له:

- أنبئنى عن خارج السجن. ما ذا يصنع الآخرون؟

فكان النسر يجيب: - أما الآن فأنا أحلق، و لا أعرف غير السماء و غيرك.

و قد أخذ جناحاه ينموان شيئا فشيئا.

- أيها الطائر الجميل ما ذا تقص هذا الصباح؟

- لقد روضت جوعى فى الفضاء.

- أيها النسر! ألا تكون فى يوم من الأيام أقل قسوة على؟

- لا! و لكنى أستطيع أن أزيد جمالا.

و كان بروميتيه مفتونا بما سيستقبل نسره من الجمال، فكان يزيد فى طعامه من يوم إلى يوم.

و ذات مساء أقام النسر و لم يرم.

ثم لم يبرح السجن من غد.

و كان يشغل السجين بنهمه، و كان السجين يشغله بمسه الرقيق، يزيده الحب نحولا كل يوم، و كان ينفق النهار ما سحا ريشه مسحا رقيقا، و كان ينفق الليل مغفيا تخت جناحه، مقدما إليه من الطعام ما يشاء — و النسر لا يفارقه ليلا و لا نهارا.

- ايها النسر الحلو! من كان يظن؟

- يظن ما ذا؟

- أن ساعات حينا ستكون عذبا.

- آه بروميتيه ...

- قل لى أى نسرى العزيز أتعلم فيم انا سجين؟

- ما يعنيك من ذلك ؟ ألست معك؟

- أجل! ما ذا يعنينى؟ أراض أنت عنى على الأقل يا نسرى الجميل.

- أجل! إن رأيتنى رائع الجمال.

٣

و جاء الربيع، و التفت حول أعواد البقرج الحديدية أغصان مزهرة عطرة من اللبلاب.

قال النسر: - سنبرح الأرض ذات يوم.

صاح بروميتيه: - أحق هذا؟

قال النسر:

- لقد أصبحت قويا أيدا، و أصبحت أنت نحيلا ضئيلا، فأستطيع أن احملك.
- أيها النسر أيها النسر ... احملنى

و احتمل النسر بروميتيه.

فصل يتيح انتظار ما بعده

فى ذلك المساء التقى كوكل و داموكل و تحدثا. و لكن شيئا من الفتور كان بينهما غير شك. فكان كوكليس يقول:

- ما ذا تريد؟ إن الرأى بيننا مختلف.

و كان داموكل يجيب:

- أواثق انت؟ ليس أحب إلى من ان نتفق.
- تقول ذلك و لكنك لا تؤمن إلا لنفسك.
- أما أنت فلا تعنى حتى بالاستماع لى. قل إذن إن كنت تعلم.
- أتزعم أنك تعلم خيرا منى؟
- وا أسفاه يا كوكليس! إنك تغضب – و لكنى رحماك! قل لى ما ذا يجب ان أصنع؟
- لا تصنع لى شيئا أكثر مما صنعت. لقد اتخذت لى عينا من زجاج.
- من زجاج لأنى لم أجد خيرا من ذلك يا عزيزى كوكليس.
- نعم! بعد ان جعلتنى اعور.
- و لكنى لست انا الذى جنى عليك يا عزيزى كوكليس.
- هذا أقل ما كان يجب أن تفعل. على أنك كنت تستطيع ان تتكلف الثمن – فقد كنت غنيا بفضل لطمتى.
- أى كوكليس لننس الماضى! ...
- بالطبع يروق لك ان تنساه.
- ليس هذا ما اعنى ...
- و لكن ما ذا تريد ان تقول إذن؟ هلم تكلم!
- إنك لا تسمع لى.
- لانى اعلم ما ستقول.
- و كاد الحوار الذى لا جديد فيه يتخذ مجرى سيئا، و اذا هما يصطدمان فجاءة بلوحة إعلان متنقلة و قد كتب عليها:

هذا المساء فى الساعة الثامنة
فى قاعة الأهلة
سيتحدث عن نسره
بروميتيه محررا
و فى الساعة الثامنة والنصف
يقدم النسر إلى النظارة و يأتى ببعض الحركات
و فى الساعة التاسعة
يجمع التبرعات لملجأ كوكليس

قال كوكليس: - يجب ان نرى هذا.

قال داموكليس: - سأ صحبك.

٤

و دخلت جماعة النظارة قاعة الأهلة فى تمام الساعة الثامنة.

و جلس كوكليس فى و سط القاعة عن يسار، و جلس داموكليس فى و سطها عن يمين، و جلس سائر الناس بين ذلك.

و ا ستقبل بروميتيه برعد من التصفيق، فصعد درجات المنصة، و وضع نسره إلى جانبه، و تاب إلى نفسه. و جرى فى القاعة صمت مرتعش ...

الاستدلال بالدور

و بدا بروميتيه حديثه قائلا:

- سا دتى ! لا ازعم نفسى مع الأ سف القدرة على إمتاعكم بمل سأقول ، و لهذا ا ستصحبت هذا النسر ، ليلعب بعض اللعب حين أفرغ من كل جزء ممل لهذا الحديث. و أنا أحمل كذلك بعض الصور الماجنة و بعض الصواريخ الطائرة. و سأ سلى النظارة بها فى المواطن الخطيرةمن خطبتى. فلى ان أنتظر منكم أيها السا دة بعض الالتفات.

و سيشرفنى أيها السا دة أن أ شهدكم طعام النسر فى كل موضع جديد من خطبتى — لان خطبتى ايها السا دة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، (و لم أر د أن أعدل عن هذا التقسيم الذى يلائم عقلى العقائدى) — و ا ذا ما كان ما قدمت يصلح فاتحة لهذه الخطبة، فسأعلن إليكم الآن مقدما و فى غير تكلف القسمين الأولين من أقسامها:

القسم الأول: يجب ان يكون لكل إنسان نسر.

القسم الثانى: على أن لكل وا حد نسرا.

و إذا كنت أخشى أيها السادة ان تظنوا بى التعصب، و اذا كنت اخشى كذلك ان أقيد حريتى فى التفكير، فقد تعمدت ألا أعد من خطبتى إلا هذين القسمين. أما القسم الثالث فسينتج بالطبع عن القسمين الآخرين، و سأدع الحماسة تسلك سبيلها إلى أبعد حد- و سيختتم هذا الحفل بجمع التبرعات.

فصاح كوكليس: - مرحى! مرحى!

شرب بروميثيه جرعة من ماء. و دار النسر ثلاث مرات حول بروميثيه ثم حيا، و نظر بروميثيه فى القاعة، و ابتسم لداموكليس ثم لكوكليس. و لم ير آية من آيات السأم فأجل صواريخه، و استانف قائلا:

٥

مهما يكن من البراعة البيانية أيها السادة فلن أستطيع أمام بصائركم النافذة، أن أخفى التناقض الذى لا مفر منه و الذى ينتظرنى فى اول حديثى.

فمهما نصنع أيه السادة فلا سبيل لنا إلى الافلات من التناقض. ما عسى أن يكون التناقض؟ أجرؤ أيها السادة على ان أقول: إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج، إذ حيث ينعدم الدليل يتأكد المزاج.

فاذا أعلنت: يجب أن يكون لكل انسان نسر، كان لكم أن تتصايحوا: لماذا؟ - و اذن فكيف تريدون أن أجيب بغير هذا الجواب الذى يؤكد شخصيتى و مزاجى و هو. لا أحب الناس، و إنما أحب ما يلتهمهم.

المزاج أيه السادة هو ما يجب أن يثبت نفسه. ستقولون: هذا تناقض جديد. و لكنى قلت آنفا إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج. و من حيث إنى أرى وجوب تأكيد المزاج فانى اعيد: لا احب الناس و انما احب ما يلتهمهم — وعلى ذلك فاذا يلتهم الانسان؟ يلتهمه نسره و إذن أيها السادة فيجب أن يكون لكل انسا نسر. و أظن أنى قد أثبت ذلك إثباتا كافيا.

... وا أسفاه! إنى أرى أيها السادة أنى قد أمللتكم فبعضكم يتثاءب. و قد أستطيع فى الحق أن أسوق هنا بعض النكات، و لكنكم قد تجدونها متكلفة، فان عقلى مطبوع على الجد لا يحيد عنه. لذلك أوثر أن أدير عليكم بعض الصور الماجنة. ذلك أحرى ان يهدىء الذين يملهم حديثى، فأمضى إلى الغاية.

و شرب بروميثيه جرعة ماء، و دار النسر ثلاث مرات حول بروميثيه، ثم حيا.

و استانف بروميثيه:

بقية حديث بروميتيه

سادتى: لم اعرف دائما نسرى. و هذا هو الذى يحملنى على أن استنتج بقياس له اسم خاص فى المنطق أنسيته، لأنى حديث عهد بالمنطق لم ادرسه إلا منذ ثمانية أيام — أقول إن هذا هو الذى يحملنى على ان استنتج. و إن لم يكن هنا إلا نسر واحد هو نسرى، أن لكمل واحدا منكم أيها السادة نسرا.

لقد كتمت قصتى إلى الآن. على أنى إلى الآن لم أفهمها و إذا أخذت نفسى بأن أقصها عليكم فى هذه الساعة، فلأنها تظهر لى فى هذا الوقت بفضل نسرى رائعة حقا.

٦

سادتى قلت لكم أنى لم اكن اعرف نسرى دائما. و كنت قبل أن اعرفه خلابا جميلا، سعيدا عاريا دون ان اعلم ذلك. يا لها اياما سعيدة. على جوانب القوقاز المشرقة كانت آسيا الهلوك تعانقنى سعيدة عارية أيضا، و كنا معا نتدحرج فى الأودية، و نجد غناء آسيا الهواء و ضحك الماء و أرج أيسر الزهر شأنا. و كثيرا ما كنا نضطجع فى ظل الأغصان العراض، بين أزهار يتنازى عليها ذبابها متناغيا. و كانت آسيا تقترن بى يملؤها الضحك ثم فى شىء من العذوبة يمتزج طنين الذباب، و هفيف الورق، و خرير الجداول الكثيرة، فيدعونا إلى أعذب النوم و احلاه و كان كل شىء حولنا يسمح و يحمى عزلتنا التى لا يطيقها الانسان — و ذات يوم قالت لى آسيا جادة: ينبغى ان تعنى بالناس.

و كان يجب على أولا أن ألتمسهم.

كنت اريد أن اعنى بهم، و كن عنايتى بهم كانت إشفاقا عليهم.

كانوا يغمرهم شىء من ظلمة. فاخترعت لهم شيئا من نار، و منذ ذلك الوقت بدأ نسرى. من ذلك الوقت جعلت أشعر أنى عريان.

و هنا انطلق التصفيق من بعض جوانب القاعة. و فجأةأمعن بروميتيه فى النحيب. و خفق النسر بجناحه و تغنى. و فى حركة بشعة فرج بروميتيه صداره و قدم كبده الجريحة إلى الطائر. فتضاعف التصفيق. ثم دار ثلاث مرات حول بروميتيه. و شرب هذا جرعة من ماء، و ثاب الى نفسه، و استأنف حديثه قائلا:



سادتى كان التواضع يسيطر على. معذرة إليكم فانى إنما أتحدث إلى الجمهور لأول مرة. أما الآن فالصراحة هى المسيطرة: سادتى لقد عنيت بالناس أكثر جدا مما كنت أقول. سادتى لقد اهديت إلى الناس خيرا كثيرا. سادتى لقد أحببت الناس حبا عنيفا هائما سىء العاقبة – و لقد أحسنت إليهم حتى كأننى خلقتهم خلقا، فأى شىء كانوا قبلى؟ - كانوا موجودين، و لكنهم لم يكونوا يشعرون بوجودهم – صنعت لهم يا سادتى بكل ما ملكت من حب، هذا الضمير كانه النار الذى تضىء لهم – و اول ما عرفوه من الشعور إنما كان الشعور بجمالهم. هذا الذى اتاح لهم بقاء النوع. و كذلك استطاع الانسان أن يبقى ذريته. و كذلك تكرر جمال الانسان الاول مستويا لا يحفل به أحد و لا يتحدث عنه احد و كان ذلك خليقا أن يتصل زمنا طويلا – و لكنى كنت بهم معنيا، و كنت أحمل على غير علم منى البيضة التى خرج منها نسرى. فأردت أكثر من ذلك بل خيرا من ذلك. خيل الى ان بقاء النوع و ان اتصاله المتقطع إنما يصوران فيهم تنظر شىء – على حين كان نسرى وحده هو الذى ينتظر، اما انا فلم اكن أعلم أنما كنت اظن ان الانسان هو الذى كان ينتظر، كنت أضع هذا الانتظار فى الانسان.

على ؟أنى قد وضعت الانسان على صورتى. أفهم الآن أن فى كل فرد من أفراده شيئا ينتظر و هو لم يتفتح بعد. فى كل فرد من أفراده كانت بيضة النسر ... ثم لا أدرى، لا أستطيع ان أفسر ذلك، و إنما أعرف أنى لم أقنع بمنحهم الشعور بوجودهم فمنحتهم الأسباب التى تجعل وجودهم نافعا مغنيا. منحتهم الأسباب التى تجعل وجودهم نافعا مغنيا. منحتهم النار و اللهب و كل الفنون التى يكون اللهب لها مادة. أشعت الحرارة فى نفوسهم، فتفتح فيهم ما يلتهمهم من الايمان باستعداد الانسان للرقى. و كنت أجد متعة غريبة حين ارى الانسان يفنى صحته ليبقى نوعه – لا مؤمنا بالخير بل مرضا طامحا إلى خير من الخير. و كان إيمانهم بالرقى، أيه السادة، هو نسرهم فنسرنا، أيها السادة، هو علة وجودنا.

و قد جعلت سعادة الانسان تنقص و تنقص و لكنى لم أحفل بذلك: فقد ولد الشر. لم اكن احب الناس، و إنما أحب ما يبقى آثارهم. و قد فرغت من انسانيتى التى لا تاريخ لها ... إنما تاريخ الانسان أيها السادة هو تاريخ النسور.



و هنا اندفع شىء من تصفيق ، فاعتذر بروميتيه مضطربا:

- أيها السادة لقد كنت اكذب. معذرة إليكم، فلم يكن هذا سريعا إلى هذا الحد. كلا لم احب النسور دائما. لقد آثرت عليها الانسان وقتا طويلا، و كنت حريصا على سعادته المنقوصة لانى نقصتها فكنت أرانى مسئولا عنها. و كنت كلما فكرت فيها حين يقبل المساء أقبل نسرى على محزونا كأنه الندم و أخذ يأكل.

كان فى ذلك الوقت نحيفا شاحبا مهتما كئيبا – كان دميما كانه الصقر – فانظروا اليه الآن أيها السادة و افهموا لماذا أتكلم، لماذا أجمعكم هنا! لماذا أضرع اليكم فى أن تسمعوا لى: ذلك أنى استكشفت هذا، و هو ان النسر يمكن ان يصير جميلا جدا – و لكل واحد منكم نسره كما اكدت لكم ذلك آنفا. نسر؟ وا أسفاه! لعله أن يكون صقرا! لا، لا! صقر أيها السادة! – يجب أيها السادة ان يكون لكل إنسان نسر ...

و الآن أصل إلى المسألة الخطيرة: - لماذا النسر! آه ! لماذا! – ليجب النسر على هذا السؤال. هذا نسرى أيها السادة أحمله إليكم ... أيها النسر أمجيب أنت الآن؟ ثم التفت بروميتيه قلقا إلى نسره. و كان النسر ساكنا و ظل ساكنا ... فاستأنف بروميتيه فى صوت أسف:

- أيها السادة! لقد سألت نسرى فى غير طائل ... ايها النسر ! تكلم الآن: إنهم يستمعون لك. من أرسلك؟ - لماذا اخترتنى؟ من أين أقبلت؟ إلى أين تذهب؟ تكلم ما طبيعتك؟ ... (و ظل النسر صامتا.) – كلا! لا شىء! لا كلمة! لا صيحة! و قد ظننت أنه سيكلمكم أنتم، و لهذا أستصحبه ... أأتكلم إذن وحدى هنا. كل شيء صامت! كل شيء صامت – ما معنى هذا! ... لقد سألته فى غير طائل.

ثم التفت الى النظارة قائلا:

- لقد أملت أيها السادة أن تحبوا نسرى، و أن حبكم سيجعل لجماله علة – من أجل ذلك منحته نفسى و غذوته بدم قلبى. و لكنى أرى ان اعجب به وحدى ... أليس يكفيكم ان يكون جميلا؟ - أم تنكرون على جماله؟ - أنظرون إليه على اعلى تقدير ... إنى لم أعش على لشىء غيره – و انا الآن أحمله اليكم . ها هو ذا ! – و لقد كنت اعيش من اجله – أما هو فلم يعيش؟ - ايها النسر الذى غذوته بدمى بنفسى و الذى منحته كل حبى ... (و هنا قطع النحيب على بروميتيه حديثه) – يجب إذن أن أترك الدنيا دون ان اعلم لماذا أحببتك، و دون أن أعلم ماذا تعمل و إلى أى حال تصير بعدى على هذه الارض ... على الأرض سألت ... سألت فى غير طائل.

و كان الكلام يحتبس فى حلقه، و كانت الدموع تمنع صوته من ان يبلغ السامعين.

ثم استأنف قائلا و قد استرد شيئا من هدوء:

- معذرة أيها السادة ! – معذرة ان اتحدث إليكم بأشياء عظيمة الخطر، و لو قد علمت أعظم منها خطرا لأفضيت إليكم به.

ثم مسح بروميتيه عرقه المتصبب و شرب جرعة من الماء و اضاف:

آخر حديث بروميتيه

لم اعدد من حديثى إلا هذا القدر ...

و هنا استدت الحركة فى القاعة، و هم الذين أدركهم السأم ان ينصرفوا.

فصاح بروميتيه:

- ساداتى إنى أتوسل اليكم فى أن تقيموا، لن اطيل ، و لكن المهم لم يقل بعد إن لم أكن قد أقنعتكم . أيها السادة! – أرجو ... هلم! شيئا من السرعة ... بعض الصواريخ ... و أنا محتفظ بأقومها للحظة الأخيرة.
- أيها السادة رحماكم اجلسوا، انظروا. أترون أنى أقتصد . إنى أرسل منها ستة فى وقت واحد. و مع ذلك فغلق الأبواب يا فتى.

و اثرت الصواريخ تأثيرا حسنا، فجلس أكثر الواقفين.

- و الآن أين بلغت من حديثى؟ لقد اعتمدت على الاندفاع الذى أصبته فقد قطعته حركتكم ...

فصاح صائح: - ليكن ، هذا خير.

قال بروميتيه: - آه! لقد تذكرت ... كنت اريد ان اقول لكم ...

(فتصايح الناس من كل جانب: حسبك! حسبك!)

...إنه يجب عليكم ان تحبوا نسركم

فارتفعت إليه فى سخرية من هنا و هناك أسئلة: "لماذا؟"

- إنى أسمع أيها السادة أسئلتكم "لماذا" : فأجيب: لأنه حينئذ سيصير جميلا.

- و إذا صرنا نحن إلى الدمامة.
- أيها السادة إن ما احمل إليكم هنا ليس كلاما تبتغى به المنفعة ...
- هذا بين.
- أنما هو كلام قوامه الاخلاص. أيها السادة يجب ان يخلص الانسان لنسره ... (فيضطرب الناس و ينهض كثيرون). أيها السادة لا تقفوا ! فسأمس بعض الشخصيات ... لست فى حاجة إلى ان أذكر هنا قصة كوكليس و داموكليس. فكلكم يعرفها. و هأنذا أواجههما بالحق. إنما سر حياتهما فى إخلاص كل منهما فى دينه. فى إخلاصك للطمتك يا كوكليس و فى اخلاصك لورقتك يا داموكليس. أى كوكليس كان يجب عليك ان تتعمق جرحك و عينك الفارغة أى كوكليس. أما أنت يا داموكليس فقد كان يجب أن تستبقى المئات الخمس من الفرنكات، و أن تظل مدينا بها فى غير خجل، و ان تظل مدينا بأكثر منها ، و أن تظل مدينا فى فرح. هذا هو نسركما أنتما. و هناك نسور أخرى، هناك نسور أعظم منها مجدا. و لكنى أقول لكم هذا: إنما النسر يلتهمه على كل حال سواء أكان فضيلة أم رذيلة، واجبا أم شهوة. اجتهد فى ألا تكون رجلا عاديا، إذن فلن تفلت من النسر لكن ...

(و هنا كان صوت بروميتيه يضيع فى صخب الجمهور) – و لكنكم إذا لم تطعموا نسركم محبين له فسيظل شاحبا بائسا مستخفيا من الناس جميعا و لكنه مع ذلك متربص، و هو الذى يسمى حينئذ بالضمير، و هو غير خليق بما يثير فى النفوس من آلام، لا حظ له من جمال – أيها السادة يجب ان يحب الانسان نسره، و أن يحبه ليصير جميلا. فقد يجب ان يحبوه لأنه سيصير جميلا ... أما الآن فقد فرغت. و سيأخذ نسرى فى جمع التبرعات. أيها السادة يجب ان تحبوا نسرى: - و انا مع ذلك أرسل بعض الصواريخ ...

و بفضل هذه التلسية الصاروخية تفرقت الجماعية فى غير مشقة، و لكن داموكليس أصابه البرد حين خرج من القاعة.

مـــــرض دامـــــوكـليس

قال الخادم لبروميتيه و قد لقيه بعد ذلك بأيام

- هل تعلم أن حاله تسوء؟
- من؟
- داموكليس. أجل تسوء جدا: - أدركته العلة منصرفه من محاضرتك...
- أى علة؟
- يترددد فيها الأطباء ، - إنها علة شديدة الندرة ... يتحدثون عن ضيق فى العمود..
- فى العمود؟
- فى العمود. – و إذا لم تدركه العافية باحدى المعجزات فلن يزد المرض إلا خطرا إنه ضعيف جدا لا شك فى ذلك، و إنك لا تحسن بعيادته.
- أتعوده كثيرا؟
- أنا؟ كل يوم. إنه قلق على كوكليس، و انا احمل اليه انباءه.
- و لما لا يذهب إليه بنفسه؟
- كوكليس؟ - إنه مشغول جدا. لقد أثر فيه حديثك تأثيرا هائلا. أتجهل ذلك؟ فهو لا يتحدث إلا عن الاخلاص. و هو ينفق وقته مطوفا فى كل مكان متلمسا لطمة جديدة تؤدى شئا من المال لرجل أمثال داموكليس. و هو يغرى فى غير نفع خده الآخر.
- نبىء بذلك صاحب الملايين

- إنى أنبئه بذلك كل يوم. بل انا من اجل ذلك اعود داموكل كل يوم.
- و لم لا يعوده هو؟
- هذا ما اقوله و هو يرفض. لا يريد أن يعرف. و مع ذلك فقد يبرأ داموكليس إذا عرف من أحسن إليه: أقول له ذلك و لكنه يمعن فى إبائه و يحرص على ان يظل مجهولا — فقد فهمت الآن انه لا يعنى بداموكليس و إنما يعنى بعلته.
- ألم تقل أنك ستقدمنى إليه ...؟
- منذ الآن إن شئت.

و مضيا إليه من ساعتهما.

٢

و إذا لم نعرف زوس صديق الخادم فقد أزمعنا ألا نتحدث عنه إلا قليلا.

فلنرو عنه فى يسر هذه الكلمات.

حديث صاحب الملايين

الخادم: - أليس حقا أنك عظيم الثراء؟

صاحب الملايين ملتفتا قليلا نحو بروميتيه: - أنا غنى، أغنى جدا مما يمكن أن نظن.

أنت لى و هو لى، و كل شىء لى. — إنكم تظنون أنى صاحب مصرف، و لكنى شىء آخر. و إن تأثيرى فى باريس خفى، و لكن هذا لا يقلل من قيمتى. هو خفى لأنى لا أتتبعه. نعم! إنى أحب قبل كل شىء الابتكار. أنا أنشىء. ثم إذا تقدم ما انشأته أعرضت عنه، ثم لم أمسسه.

الخادم: - أليس حقا أن اعمالك عابثة؟

صاحب الملايين: - أنا وحدى، إنما صاحب الثراء الذى لا حد له هو الذى يستطيع أن يعمل فى غير غاية. أما الانسان فلا. و من هنا احببت اللعب، لم احب الكسب، افهما عنى — إنما أحب اللعب. و ما ذا عسى ان أكسب و قد ملكت كل شىء؟ حتى الزمن ... أتعرفان سنى؟

بروميتيه و الخادم: - يظهر ان سيدنا ما زال شابا.

صاحب الملايين: - و إذن فلا تقاطعنى يا بروميتيه. نعم أنا كلف باللعب. و اللعب الذى أوثره هو ان اقرض الناس — أقرضهم مضيعا للمال. أقرضهم و كأنما اعطيهم — يعجبنى ألا يعلم الناس أنى أقرض. أنا ألعب و لكنى أخفى لعبى. أنا أجرب. أنا ألعب كما يلقى الهولندى بذوره، كما يزرع بصيلة خفية. و ما أقرضه للناس و ما ازرعه فى الناس يعجبنى أن ينمو، يعجبنى أن أراه ينمو. و بغير ذلك يصبح الانسان فارغا! — دعانى أقصص عليكما أحدث تجاربى، و ستعنانى على ملاحظتها. اسمعا لى أولا و ستفهمان بعد ذلك. ستفهمان.

لقد هبطت إلى الشارع ملتمسا الوسيلة إلى أن أوذى احد الناس بالخير الذى اسوقه إلى غيره، لأمتع هذا الاخير بالألم الذى سأمتحن به ذلك الاول. و يكفينى لذلك لطمة و ورقة قيمتها خمسمائة فرنك، لأحدهما اللطمة و للاخر الورقة. أواضح هذا؟ أما ما هو أقل وضوحا فهى الطريقة التى يكون بها المنح.

قال بروميتيه مقاطعا: - أعرف ذلك.

قال زوس.

- ما ذا! أتعرف؟
- لقد لقيت داموكليس و كوكليس، إنما أحدثكما عنهما بالضبط: أن داموكليس يلتمسك و يدعوك، إنه قلق، إنه مريض، أشفق عليه و أظهر له نفسك.

- يا سيدى حسبك – لست فى حاجة إاى أن أتلقى النصح من احد.

و هم بروميتيه أن ينصرف، و لكن يبدو له فجاؤة:

- سيدى معذرة إليك و اعف لى عن سؤال متطفل. أظهره لى متفضلا! كم او د لو أراه ...

- ما ذا؟

- نسرك.

- لا نسر لى يا سيدى.

- لا نسر لك؟ ليس له نسر !! و لكن ...

- لا نسر لى كما أنه لا نسر فى باطن يدى. النسور (و كان زوس يضحك) النسور أنا الذى أعطيها.

و كان ذهول بروميتيه عظيما.

قال الخادم لصاحب المصرف:

- أتعرف ما ذا يقال؟

- ما ذا يقال؟

- يقال أنك الاله!

قال الآخر: - لقد سمعت ذلك.

٣

ذهب بروميتيه ليعود داموكليس. ثم عاده مرات كثيرة . و لم يكن يتحدث إليه كل مرة! و لكن الخادم كان يعطيه أنباءه. و قد استصحب كوكليس ذات يوم.

فاستقبلهما الخادم. قال بروميتيه: - كيف هو؟

أجاب الخادم:

- سيء سيء جدا. لم يطعم البائس شيئا منذ ثلاثة أيام. إن مصير ورقته يعذبه، فهو يلتمسها فى كل مكان و لا يجدها فى مكان. يظن انه أكلها فيتخذ السهل و يلتمسها فيما يخرج منه. فاذا ثاب إليه عقله و ذكر هذه المغامرة لم يزده ذلك إلا حزنا و نغصا. و هو واجد عليك يا كوكليس، فهو يزعم أنك تعقد دينه حتى يختلط الأمر عليه، و هو يهذى فى أكثر الأحيان. و نحن ثلاثة لسهر عليه الليل، و لكنه يثبت فى سريره حتى يحول بيننا و بين النوم.

قال كوكليس:

- أيمكن أن نراه؟

- نعم! و لكنك ستراه قد تغير. إن القلق يفنيه. لقد نحف و نحف و نحف. أتراك تعرفه؟ - و هو أتراه يعرفك؟

و دخلوا يسعون على أطراف أقدامهم.

الأيام الأخيرة لداموكليس

و كانت غرفة داموكليس بغيضة الرائحة لما اشتملت عليه من ادوية، و كانت ضيقة منخفضة السقف. و كان ينتشر فيها ضوء حزين من ساهرتين. و كان داموكليس يرى فى سرير تحت كومة قذرة من الأغطية. و كان يتحدث إلى شخص ما و إن لم يكن أحد يصغى إليه، و كان صوته أجش مبحوحا. و قد نظر كل بروميتيه و كوكليس إلى صاحبه و قد ملأهما الروع! و لم يسمعهما داموكليس حين أقبلا، فمضى فى حديثه كأنه كان وحيدا.

كان يقول:

- و منذ ذلك اليوم ظهر لى فى وقت واحد أن حياتى قد أصبحت ذات معنى، و انى لا أستطيع ان أحيا! هذه المئات الخمس من الفرنكات البغيضة الممقوتة، كنت أظن أنى مدين بها للناس جميعا و لا اجرؤ على أن اعطيها لأحد – لقد حرمتها الناس جميعا. و لم أكن أفكر إلا غى أن أخلص منها – و لكن أين؟ - فى صندوق التوفير! و كان ثقيلا على أن أدع هذا المال راكدا. و كذلك رأيت أن أدير هذا المقدار من المال. فكتب أحمله دائما، و كنت أستبدل فى نظام كل ثمانية أيام بالورقة نقدا و بالنقد ورقة. و ليس فى الصرف ربح و لا خسارة، و إنما هو جنون دائر ليس غير. و إلى هذا كان يضاف الألم من أنى إنما تلقيت هذه المئات الخمس من الفرنكات بفضل لطمة تلقاها رجل آخر! و فى ذات يوم لقيتك فى المطعم كما تعلم ...

قال الخادم: - إنما يتحدث عنك.

و إذا نسر بروميتيه يحطم واجهة و يفقأ عين كوكليس ... لقد نجوت !! عابثا منتهزا للمصادفة مستفيدا من الحظ. سأزلق هذا المبلغ فى أثناء هذه الأحداث. لادين! لقد نجوت! – و احسرتاه يا سادتى. يا له من خطأ ... إنما احتضر منذ ذلك اليوم. كيف أفسر لكم هذا؟ أيمكن أن تفهموا ما أجد من لوعة هذه المئات الخمس من الفرنكات؟ أنا مدين دائما و لكنها ليست فى يدى! لقد هممت فى جبن أن أتخفف من دينى و لكن لم اوده. و إنى ليأخذنى الكابوس أثناء الليل فأهب و قد تصببت عرقا و أجثو صائحا:: "رباه! لمن كنت مدينا!" لست أدرى و لكنى كنت مدينا – إن الدين يا سادتى شىء بغيض. أما أنا فقد آثرت أن أموت – و الآن فان أشد ما يؤلمنى هو أنى نقلت إليك هذا الدين يا كوكليس ... كوكليس إن عينك ليست لك لأن المال الذى اشتريتها به لم يكن لى. يقول الكتاب المقدس: "أى شىء عندك لم يعط لك" ... يعطى لى ممن؟ ممن؟ ممن؟ - إن شقائى لا يطاق.

و كان صوت البائس يتقطع و يبتل و يختنق فى الشهيق و النحيب و الدموع. و كان بروميتيه و كوكليس قلقين يسمعان. قد أخذ كل منهما بيد صاحبه و هما يرتعدان. و كان داموكليس يقول و كأنه كان يراهما:

- إن الدين لبغيض أيها السادة ... و لكن أشد منه هولا الندم على محاولة التخلص من الدين ... كما لو كان الدين أقل وجودا إذا حمله شخص آخر ... و لكن عينك تحرقك. انزعها! – إن لم تكن تحرقك فهى خليقة أن تحرقك. – إنها ليست لك هذه العين ... و إذا لم تكن لك فهى إذن لأخيك ... لمن هى؟ لمن؟؟ لمن؟؟

و كان البائس يبكى، و كان يفقد عقله و قوته، و كان أحيانا يحدق فى كوكليس و بروميتيه كأنه يعرفهما ثم يصيح بهما:

- إفهما عنى إشفاقا على! إن الاشفاق الذى أطلبه إليكما ليس عصابة مبتلة على جبهتى و ليس قدحا من الماء البارد و ليس شرابا حارا، و إنما هو أن تفهما عنى. أعيانى إذن رحمة لى على ان أفهم نفسى! – إن عندى هذا الذى لا أدرى من أين جاءنى، و الذى أنا مدين به لا ادرى لمن! لمن!! لمن!! – و لأجل أن أخلص من هذا الدين ظننت أنى أقدر على ذلك فذهبت أمنحه لغيرى! لغيرى!! لكوكليس تصدقت عليه بعين!! و لكن هذه العين ليست لك يا كوكليس. أرددها. أرددها، إلى من ! إلى من !! إلى من!!

و لم يستطع كوكليس و برميتيه أن يحتملا فانصرفا.

٤

قال كوكليس و هما يهبطان فى السلم: - هذا جزاء من اكتسب الغنى من الم غيره.

قال بروميتيه: - و لكن أتجد على أقل تقدير شيئا من الألم؟

قا لكوكليس:

- أجد الألم فى عينى أحيانا، فأما اللطمة فلا أكاد أجد لها ألما، لقد خف وقعها. و لست أحب ألا أكون قد تلقيتها لانها أظهرتنى على أنى رجل خير. و هذا يعجبنى و يرضينى، فما أنفك أفكر فى ان ألمى قد عاد على نظير لى بالرزق و اغل عليه مئات خمسا من الفرنكات.

قال بروميتيه: - و لكن نظيرك هذا يموت من ذلك يا كوكليس.

- ألم تكن تقول له إن عليه أن يغذو نسره؟ - ما ذا تريد؟ لم نستطع قط، داموكليس و انا، أن نتفق ، فان أراءنا متناقضة إلى أبعد حدود التناقض.

ثم انصرف بروميتيه عن كوكليس و مضى مسرعا إلى زوس صاحب المصرف. فقا له:

- أشفق على هذا الرجل و أره نفسك أو أعلمه من انت. إن البائس يموت حسرة. و قد أفهم أن تقتله لأنك تجد فى ذلك لذة، و لكن يجب على الأقل من قاتله — ليستريح إلى هذا العلم.

قال صاحب الملايين: - لا أريد أن أفقد سلطانى.

٥

و كانت آخرة داموكليس خليقة بالاعجاب، فقد نطق قبيل ساعته الاخيرة ببعض هذه الكلمات التى تبكى أشد الناس جحودا و تحمل المؤمنين بالدين على ان يقولوا إنها مليئة بالعبرة و الموعظة. و كان أظهر شعوره ما تصوره هذه الكلمات: - أرجو على الأقل ألا يكون هذا المبلغ قد قضى عليه الحرمان.

فسئل: من هو؟

قال داموكل كل هو يجود بنفسه: - هو من أعطانى شيئا ...

قال الخادم فى لباقة: - كلا! إنما هو الاله.

و مات داموكليس حين سمع هذه الكلمة الطيبة.

الجنـــــــــازة

و كان بروميتيه يقول لداموكليس و هما يتركان غرفة الموت:

- إن هذا لفظيع! إن آخرة دامزكليس لتملأ نفسى جزعاً. أحق أن محاضرتى كانت مصدر مرضه؟

قال الخادم: - لا استطيع أن أؤكد ذلك، و لكنى أعلم على الأقل أنه كان شديد التأثر بما كنت تقول عن نسرك.

قال كوكليس: - عن نسرنا

قال بروميتيه:

- لقد كنت شديد الاقتناع. و لذلك أقنعته ... لقد كان حديثك شديد القوة ...
- كنت أظن أن أحدا لم يكن يصغى الى ... و كنت من أجل ذلك ألح ... و لو قد علمت أنه كان يسمع لى ...
- ما ذا كنت قائلا؟

قال بروميتيه مغمغما:

- نفس ما قلته.
- و إذن؟
- و لكنى لن أقول ذلك منذ الآن.
- ألم تعد مقتنعا؟
- لقد أسرف داموكليس فى الاقتناع. فأما الآن فان لى فى نسرى آراء أخرى.
- و على ذكر النسر أين هو؟
- لا تخف يا كوكليس فانى أرقبه من كثب.
- وداع. سأتخذ الحداد. متى نلتقى؟
- حين الدفن فيما أظن. سأتكلم عند القبر. يجب أن أصلح شيئا. ثم أدعوكما بعد ذلك، سأقدم طعام الحداد، و فى نفس المطعم الذى رأينا فيه داموكليس لأول مرة.

٦

و فى ساعة الدفن لم يكن المشيعون كثيرين، فلم يكن داموكليس معروفا إلا قليلا، فلم يلتفت الى وته أحد من الذين لم يعرفوا القصة، و قد التقى بروميتيه و الخادم و كوكليس عند القبر و شهد الدفن بعض الفارغين من الذين ا ستمعوا للمحاضرة، و كان كل واحد ينظر إلى بروميتيه و كان معروفا أنه سيتكلم، و كان بعضهم يسأل بعضا: "ما عسى أن يقول؟" لأنهم كانوا يذكرون ما قال. و كان الدهش يسبق خطيته و كان مصدر هذا الدهش أن الناس لم يكونوا يحقون بروميتيه، و كان بدينا نشيطا مبتسما مبتسما إلى حد ان سيرته كا دت تعد مخالفة للمألوف، ثم تقدم نحو القبر با سما دائما و لم يكد يبلغه حتى ا ستدار و نطق بهذه الكلمات:

قصـــــة تيتـــــير

أيها الناس الذين يتفضلون بالا ستماع لى غن الجملة التى اقتبسها من الكتاب المقدس و اتخذها مقدمة لما سأستأنف من حديث هى هذه:

- " دعوا الموتى يدفنوا الموتى". فلن نشغل أنفسنا إذن بداموكليس. — لقد رأيتكم لآخر مرة مجتمعين تسمعون لى و أنا اتحدث عن نسرى. لقد مات لهذا الحديث داموكليس، فلندع الموتى ... و مع ذلك فبسببه، بل بفضل موته قتلت نسرى ...

فتصايح الناس: قتل نسره!!!

- و بهذه المنا سبة ا ستمعوا لهذه القصة ... و هبونى لم أقل شيئا.

١

فى البدء كان تيتير.

و كان تيتير وحده يعانى السأم و قد أحاطت به المستنقعات — و هنا مر مينالك فوضع فكرة فى رأس تيتير و ألقى حبه فى المستنقع أمامه. و كانت هذه الفكرة هى الحبة و كانت الحبة هى الفكرة. و بمعونة الله نبتت الحبة و أ صبحت نبتة ضئيلة. و كات تيتير فى المساء و الصباح يجثو أمامها و يشكر الله الذى وهبها له. و هذه النبتة نمت. و إذ كان جذرها قويا فما أ سرع ما أيبست الأرض من حولها، بحيث وجد تيتير أرضا جامدة يضع عليها قدميه، و يسند اليها رأ سه و يقوى عمل يديه.

فلما بلغت هذه النبتة قامة تيتير ا ستطاع تيتير أن يذوق بعض اللذة بالنوم فى ظلها. و إذ كانت هذه الشجيرة بلوطة فقد كان من الطبيعى أن تعظم جدا، حتى عجزت يد تيتير عن ان تقوم وحدها بتنقية الأرض و عزقها حول هذه البلوطة، و بسقى الشجرة و تنظيفها و تقليمها و العناية بها و صيانتها من الدو د و اجتناء ثمراتها الكثيرة المختلفة فى الفصل الملائم لذلك. فا ستعان إذن بمنق و عازق، و ساق، و منظف، و مقلم، و مهذب، و مشذب، و ذائد للدو د، و بعض الغلمان الذين يحسنون العناية بالفاكهة. و إ ذ كان على كل وا حد من هؤلا ء أن يقصر جهده على ما كلف من عمل فقد كان من المأمول أن يكون كل منهم متقنا لعمله.

و لتنظيم دفع الاجور لهؤلاء الناس ا حتاج تيتير إلى حا سب كما ا حتاج إلى خازن يشاركه فى العناية بثروة تيتير، التى جعلت تنمو بنمو شجرة البلوط.

و قد شجر بعض الخلاف بين المشذب و المهذب حول توزيع عمليهما، فعرف تيتير الحاجة إلى حكم، و ا ستعان هذا الحكم بمحامين: أحدهما مدع و الآخر منكر، و اتخذ تيتير مسجلا يقيد الأحكام. و إذ كانت الأحكام إنما تسجل لتنفع و ليستعان بها فى مستقبل الأيام فقد اتخذ تيتير حافظا للأحكام. و قد جعلت الدور ترتفع على الأرض شيئا فشيئا. و لم يكن بد من شرطة لحفظ الأمن، و من شرطة لحماية الآ داب.

و قد ثقل العمل على تيتير فأخذ يحس ثقل المرض، و قد دعا الطبيب فو صف له الزواج — و ا ذا لم يكن تيتير يستطيع أن ينهض وحده بأعباء هولاء الناس الكثيرين، فقد اتخذ له مساعدا، و نشأ عن ذلك أن أ صبح هو عمدة. و منذ ذلك الوقت لم يبق له إلا شيء قليل من فراغ ليتصيد الأ سمك من نافذة بيته التى ظلت مطلة على المستنقعات. و قد اتخذ تيتير أيام أعيا د يباح فيها لشعبه أن يلهو. و كان اللهو يحتاج إلى نفقة كثيرة، و كان كل واحد من أفرا د الشعب قليل المال لا يستطيع أن يقرض الناس جميعا، فبدأ تيتير بجباية بعض المال من كل وا حد.

و قد قامت شجرة البلوط فى السهل (فلم تتحول الأرض برغم المدينة و برغم الجهو د التى بذلها هؤلاء الناس الكثيرون عن طبيعة السهل) و قد قامت الشجرة فى السهل بحيث كان أحد جانبيها فى الظل و الآخر معرضا للشمس. و كان تيتير يصدر أحكامه فى الجانب الظليل و يقضى حاجته الطبيعية فى الجانب الاخر.

و كان تيتير سعيدا لانه كان يشعر بانه ينفع الناس بحياته الحافلة بالأعمال.

٢

و جهد الانسان قابل للاستثمار. فقد كان نشاط تيتير يز دا د بفضل ما يلقى من النجاح. و كان حذقه الطبيعى يغريه بأعمال أخرى، فجعل يعنى بتأثيث داره و فر شها و تهيئتها للسكنى. و قد أعجب الناس بحسن تنظيمه للاستار و تهيئة كل إدارة لما يسرت له. و كان ماهرا بارعا فى التجربة، بل هو قد اخترع مشاجب معقوفة يعلق عليها الاسفنج، ثم لم تمض أربعة أيام حتى تبين أنها غير ملائمة بحال من الأحوال.

و أقام تيتير إلى جانب حجرته حجرة لمصالح الشعب العامة. و لما كان المدخل مشتركا بين الحجرتين، لم يكن من الممكن أن تطر د المدفئتان الدخان معا، فكان ايقا د إحداهما غى أوقات البر د يشيع الدفء فى حجرة و الدخان فى الأخرى. فتعو د تيتير إذا أرا د أن يوقد النار ان يحتفظ بنافذته مفتوحة.

و كان تيتير يحمى كل شى، و يعمل على انتشار أنواع الحيوان، فانتهى به الأمر إلى أن رأى الديدان تسعى فى مسالك حديقته متكاثرة، حتى أ شفق أن يحطم واحدة منها فلم يكن يدرى أين يضع قدمه، و اضطر آخر الامر إلى ألا يخرج إلا قليلا.

و قد أنشأ مكتبة دائرة ر دعا إليها مؤجرة و ا شترك عندها فى هذه المكتبة. و كانت هذه المؤجرة تسمى أنجيل، فتعو د ان ينفق عندها السهرة مرة كل ثلاثة أيام. و كذلك تعلم تيتير ما بعد الشيعة و الجبر و العلم الالهى. و قد أخذ تيتير و أنجيل يعنيان معا فى نجح ببعض الفنون الجميلة الرفيعة. و أظهرت أنجيل ذوقا خا صا فى المو سيقى، فا ستأجر بيانو مديلا، و جعلت أنجيل تعزف عليه مقطوعات كان ينشئها من أجلها بين حين و حين.

و كان تيتير يقول لأنجيل: - إن هذه المشاغل الكثيرة ستهلكنى، فقد بلغت من الاعياء غايته، و إنى لأحس الفناء يسعى فى، و إن هذا التضامن ليزيد ضميرى يقظة و تحرجا، فا ذا زا دا نقصت. ما العمل؟

قالت له أنجيل:

- فلو سافرنا؟
- لا أ ستطيع أنا. تمنعنى من ذلك شجرة البلوط.

قالت أنجيل:

- فلو تركتها!
- ألم تكبر بحيث أ صبحت تستطيع أن تنمو وحدها؟
- و لكنى مو صول بها.

قالت أنجيل:

- فانفصل عنها.

و بعد قليل من الوقت ا ستيقن تيتير أن أعماله و تبعاته و شواغل ضميره و شجرة البلوط لا تمسكه، فابتسم و توسم مهب الريح و قد ا ستصحب الخزانة و أنجيل، و هبط نحو آخر النهار الشارع الذى يؤ دى من الما دلين إلى الأوبرا.

٣

و كان منظر الشارع فى ذلك المساء غريبا يؤ ذن بأن شيئا شا ذا رهيبا يريد أن يحدث. و كان جمهور ضخم قلق يز دحم قد اكتظ به الافريز و كا د يسيل إلى الطريق التى كان يحميها شرط باريس و قد ا صطفوا فى نظام متقاربين. و كانت الأر صفة امام المطاعم تظهر مسرفة فى السعة لكثرة ما صف عليها من الموائد و الكرا سى، فتزحم الطريق و تجعل الحركة شيئا مستحيلا. و ربما ارتقى أحد النظترة كر سيه لحظة يدفعه إلى ذلك تطلعه، ثم لا يلبث أن ينزل حين يدعى إلى النزول. و كان واضحا أن الناس جميعا كانوا ينتظرون. و كان الشعور عاما واثقا بأن شيئا سيهبط عند شاطىء الافريز ساعيا على الطريق التى تحميها الشرط. و بعد مشقة عظيمة وجد أنجيل و تيتير مائدة و دفعا لها اجرا عاليا و جلسا إلى قدحين من الجعة و سألا الخادم: - ما ذا ينتظر الناس؟

قال الخادم:

- من أين عاد سيدى؟ ألا يعلم سيدى أن الناس ينتظرون صليبه؟ إنه يمر بين الخامسة و السا دسة ... و انظر، و ا سمع: يخيل إلى أن مزاميره.

و ارتفع من اعماق الشارع صوت نحيل من ا صوات القصب، فرجع الجمهور الذى از دا د لحسه إرهاقا و عظم الصوت و دنا، و قالت أنجيل:

- إن هذا لمؤثر جدا.

و كانت الشمس متهالكة تر سل أ شعتها من أقصى الشارع إلى أقصاه. و رئى ميليبه كأنما تنزل من روعة الغروب و هو يتقدم و صوت مزماره يسعى بين يديه. و لم يكن يتميز منه فى اول الأمر إلا مظهره، فلما دننا قالت أنجيل:

- يا له فاتنا خلابا!

و قد بلغ ميليبيه مجلس تيتير فقطع غناء مزماره، و وقف فجاءة و رأى أنجيل و ا ستبان كل إنسان كأنه كان عريان. قالت أنجيل و قد مالت إلى تيتير: - ما أجمله! و ما أحسن اعتدال قوامه! و ما اخلب مزاميره للعقول!

و كان تيتير يجد بعض الضيق. قالت أنجيل: - سله إلى أين يذهب.

قال تيتير: - إلى أين يذهب؟

أجاب ميليبيه**EA ROMAM**

سألت انجيل: - ما ذا يقول؟

تيتير: - لن تفهمى يا صديقتى.

قالت أنجيل: - و لكنك ستفسر لى.

فعا د ميبيليه يقول:**ROMAM, URBEM QUAM DICUNT ROMAM**

أنجيل: -ما أعذب ما يقول! — ما معنى هذا؟

تيتير: - أؤكد لك يا عزيزتى أنجيل أن هذا ليس من العذوبة بحيث تظنين. فهو لا يزيد على أن يقول إنه ذاهب إلى روما.

قالت أنجيل: - روما! — كم أحب ان أرى روما.

و أخذ ميليبيه أعوا ده و ا ستأنف لحنه السا ذج.

و لم تكد أنجيل تسمع الصوت حتى شغفت ثم نهضت ثم دنت. و إذ كان ميليبيه يعطف ذراعه فقد أخذتها. ثم سعيا فى الشارع فنأيا فاز دهيا فا ستخفيا فى الأ صيل الذى ليس ورا ءه شىء.

و قد أطلق للجمهور عنان، فجعل يضطرب فى ا صطخاب شديد، و كنت تسمع الناس يتسا ءلون من كل جانب: - ما ذا قال؟ - ما ذا عمل؟ من هذه المرأة؟ و لما ظهرت بعد ذلك بقليل صحف المساء تخطفها ا ستطلاع عنيف كأنه الاعصار، و عرف الناس فجأة ان هذه المرأة هى أنجيل، و أن ميبيليه هذا رجل عريان ذاهب إلى ايطاليا.

هنالك خبا حب الا ستطلاع، و سال الجمهور كأنه الماء الحر منصرفا عن الشارع الأعظم. — و رأى تيتير نفسه وحيدا قد أحاطت به المستنقعات من جميع جهاته.

فهبونى لم أقل شيئا.

و عصف بالسامعين ضحك لا سبيل إلى وقفه.

قال بروميتيه و هو يضحك:

- أيها السا دة إنى لسعيد حين أرى قصتى تلهيكم. فقد ا ستكشفت سر الضحك منذ مات داموكليس. — و قد فرغت الآن أيها السا دة فلندع الموتى، و لنسرع إلى تناول الغذا ء.

و أخذ الخا دم باحدى ذراعيه، و أخذ كوكليس بذراعه الاخرى، و خرجوا جميعا من دار القبور، و لما تجاوزوا الباب تفرق سائر الجماعة.

قال كوكليس: - معذرة اليك، فقد كانت قصتك ظريفة و قد سليتنا ... و لكن ام أتبين صلة بينها و بين ما نحن فيه ...

قال بروميتيه:

- لو تبينت الصلة لما ضحكت كما تضحك الآن. لا تلتمس لهذا كله معنى ذا خطر.
- إنما أردت ان ا سليكم. و أنا سعيد لانى بلغت ما كنت أريد. ألم أكن مدينا لكم بذلك؟ لقد أمللتكم فى حديثى الأول.

و بلغوا الشارع:

قال الخا دم:

- إلى أين تذهب؟
- إلى مطعمك إن شئت تذكارا للقائنا الأول.

قال الخا دم:

- لقد جاوزته.
- لا أعرف الواجهة
- لأنها جديدة الان.
- أنسيت ان نسرى ... إطمئنا: لن يحطمها مرة اخرى.

قال كوكليس:

- أحق إذن ما كنت تقول.
- ما ذا
- انك قتلته.

قال بروميتيه:

- و اننا سنأكله ... أتشك فى ذلك؟ ألم تنظر إلى! أكنت أستطيع أن أضحك فى حياته؟ ألم أكن شديد النحافة؟
- من غير شك.
- لقد كان يأكلنى منذ زمن طويل . فقد آن لى أن آكله.

إلى المائدة! علم! إلى المائدة يا سيدى! — أيها الخا دم ... لا تخدم: و خذ مكان داموكل لنذكره للمرة الاخيرة.

و كان الغداء أشد مرحا مما يباح لنا ان نصوره هنا. و كان النسر شهيا لذيذا.

و سال سائل:

- ألم يكن فة وجوده نفع ما؟

- لا تقل هذا يا كوكليس! – فان لحمه قد غذانا. – كنت أسأله فلا يجيب ...

و أنا آكله غير واجد عليه. و لو قد عذبني أقل مما عذبني لكان أقل سمنا مما هو.

و لو قد كان أقل سمنا لوجدنا فى أكله لذة أقل مما نجد.

- ما ذا بقى من جماله الرائع أمس؟

- لقد احتفظ بريشه كله.

و بريشة من هذا الريش أكتب هذا السفر الصغير فسعيت أيها الصديق النادر ألا تراه رديئا.

LE PROMÉTHÉE MAL ENCHAÎNÉ
ANDRÉ PAUL GUILLAUME GIDE
1869 – 1951

Nobel Winner in Literature 1947

